مذهبٌ ذو حقيقة مزدوجة

كان طوع يده ، لو فكر العلم في التخلص من الكهنوت ومن الفلسفة الأرسطوطاليسية التي سرعان ما انضوت تحت نير اللاهوت كي يتسنى لها الصمود . ولقد كانت هذه الحقيقة ماثلة أمام رواده : أجل ، إن الشعار الذي كان من الممكن أن يتطلعوا تحت مظلته إلى الانعتاق من الاشراف الكنسي واللاهوتي ، نقله إليهم أحد العرب : ابن رشد الذي أطلقت عليه أوروبا اسم Averros . لقد فرّق بين حقيقتين : الحقيقة التوقيفية لديانة الشعب ، والحقيقة العقلانية لعلم الإنسان . فيهما ـ هكذا يرى ـ يظهر فارق اجتماعي يقوم على مستويات الثقافة المختلفة . على هذا النحو ، وضع الفلسفة التي كانت ارسطوطاليسية بالنسبة إليه فوق الدين ، وهذا يعني هجوماتٍ مريرةً من جانب المسلمين المتزمتين . والواقع أنه وقف في هاتين الحقيقتين بناءان فكريان مختلفان وجهاً لوجه : الاسلامية العربية ـ واليونانية .

إن مجرد المحاولة للتوفيق ما بين كلتا السلطتين ، اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية ـ الأرسطوطاليسية ، إنطوى في حد ذاته منذ البداية على انفصام ازدواج الحقيقة . الأمر الذي اضطر توماس ـ أكوين إلى التوفيق بينهما ، لئلا يتغاضى عن الشرخ العميق المتسع بينهما . ولقد رفع سيجر ـ باربانت راية ابن رشد حول الحقيقة المزدوجة في وجه اللاهوت ، ومن أجل ذلك حكم عليه مرتين ١٢٧٠ و ١٢٧٧ بالالحاد وقضى نحبه في سجنه غيلة . وقد جاء في مرسوم رئيس اساقفة باريس (تيمير) ، الذي كان يقصده ، حين صبّ جام غضبه (لعنته) على تلك الموضوعات بقوله : « ما هو صحيح في نظر العقل ، قد يكون خطأ في نظر العقيدة » ؛ الشيء الذي أكد به دون نجاح استقلالية المذاهب الفلسفية عن العقائد الكنائسية . كفرشينع في الواقع من منطلق صحة الحقيقة الواحدة للكنيسة الكاثوليكية .

أجل ، أن الشقة الواسعة بين العقل والعقيدة آخذة بالاتساع . وتتسع ـ وهو رأي دون سكوتوس[1] DunsScatus ـ الآن على حساب العلم أيضاً . أما

(١) فرنسيسكاني اسكتلندي . عاش ومات في مدينة كولن بالمانيا .

تلميذه فلهلم فون أوكام W. Occam (١٢٩٠ ـ ١٣٤٩) ، فقد كان يفرق جيداً بين نطاق العقيدة التي لا تستلزم البرهان ، والتي ليست فوق العقل ، بل مناقضة له ولكل الأفق التجريبي الذي يعتبر أساساً يقوم عليه العلم . والمعرفة ـ العلم والدين ـ ينبغي أن يُفرَّق بينهما جدِّياً ـ هكذا يريد ـ كما يفرق بين الملك والكنيسة التي ما عليها إلا أن تقتصر مهامها على التكليف الروحي . وقد تمكن فلهلم هذا من الافلات من سجنه البابوي الذي كان قد أودع فيه بسبب كفره الصارخ في آفجنون مع المعلم إكهارت Eckhart ، حيث هرب إلى القيصر لودفيج في ميونيخ ببافاريا وجرّد هناك قلمه لمهاجمة البابوية . وفي مواجهة الهيمنة اليونانية ـ جنباً إلى جنب مع المدعو فلهلم فون أوكام ومدرسته ، فرضت نفسها الآن رؤية أوروبية للحقيقة بشكل حسم : التجربة الفردية ـ الخصوصيات ـ المؤشر على الواقع ـ التجربة ، المنطق والرياضيات ينبغي أن يفسحا الطريق نحو المعرفة الطبيعية بعيداً عن التجريد والعقيدة .

تحرر العلم الأوروبي

في هذا الهواء الطلق نما فرع من فروع العلوم الطبيعية الحديثة ، ذي أهمية خاصة للمستقبل وقدرٍ غير منقوص لذلك العصر ورجالاته الكبار الذين أقاموا مجد العلم عليهم مجتمعين . وقبل كوبرنيكوس ، غاليلي ، كبلر ، ونيوتن بوقت طويل ، طُرحت الممرات التي سيطوي عليها قطارهم الأرض . فمن مدرسة فلهلم الباريسية في أوكام ، برز ثلاثة عباقرة ، فرنسيان والماني واحد . اسماؤهم غير المعروفة تستحق الاهتمام .

يوحنا بوريدان (١٣٠٣ ـ ١٣٥٨) الذي تقلد منصب رئيس جامعة باريس ولما يبلغ السابعة والعشرين من عمره بعد .

البرت فون ساكش حوالي (١٣١٦ ـ ١٣٩٠) من مدينة هلمشتسيت Helmatedt ، وهو أول رئيس لجامعة فيينا ، ورئيس أساقفة Halberenshest .

ونيكولاس ـ اوريسم N. Oresme (١٣٢٠ ـ ١٣٨٢) من النورماندي ، وهو مربي كارل الرابع من فرنسا ، ورئيس أساقفة Lisieux .

وكما تصدى الفكر الأوروبي بحزم ضد ازدواجية التعاليم المسيحية

والأرسطوطاليسية المهيمنة على كل شيءٍ ، وأرسى تقنية مستقبلية غنية حديثة إلى جانب انقاض الأرسطوطاليسية ، كان مثلاً يحتذى للقوى الشابة ، التي قدرت على التفتح في منأى عن القوالب الفكرية : لقد كان الرسم الأرسطوطاليسي الساخر للحركة ، هو الذي وضع كل جرم سماوي في مداره ، بواسطة مسببات غيبية ، ومحرك أخروي دفعة إثر دفعة ، واستعمل ، من أجل تحقيق هذا الغرض وعلى الدوام ، عدداً لا يحصى من الأيدي ، وذكاء نادراً ، منه تحصل العقول على القبس الذي يزكيها . إنها لمعرفة حديثة ، لا شك أنها استيقظت من جديد ،خرجت على لسان إريوجينا . ونظرية الحركة هذه ، التي لا بد تُدفع بين الحين والآخر ، من الخارج ، ومن الأعلى ، لاجتياز البعد الإلهي الذي لا نهاية له ، وتقوم بالوساطة ما بين الله والأجسام المتحركة بوسيط نصف طبيعي ، ناقضها الآن أيضاً رئيس جامعة السوربون الشاب بكل قواه . فبدلاً من الأفكار التأملية المجردة ، تأمل العالم من حوله بعينين مفتوحتين ، وحصل على المعلومات من الظواهر ذاتها . والتجربة تنفي وجود كائن وسط وسيط . إن دولاب (الصقل) يدور حتى ان لم يدفع دوماً. وقد تبحر السفن في عكس التيار، حتى لو لم يحركها بشر أو حصان. وهذه الواسطة غير المنقطعة المزعومة، هي بلا جدوى ولا حاجة لها . وكما أن الطبيعة تحمل في ذاتها سبب وجودها ، فعلى هذا النحو تكمن فيها ـ ولا يختلف ذلك في شيء عما هو في محيط السماء ـ القوة المحركة وتؤثر بلا وساطة وبشكل غير مباشر .

لقد أظهرت التجربة ، أنه حين تقذف إليه بحجر ، فإنها تمنحه قوة ـ وعن هذا تحدث البتروجي ـ تعمل على دفعة وتتناقص بسبب مقاومة الهواء المستمرة ووزن الحجر إلى أن تهوي قوة الثقل بالحجر نحو الأرض . وعلاقة الاثنين ببعضهما يمكن أن تثبت رياضياً . وطبقاً لهذا التصور ـ يبين بوريدان ـ أنه من غير الضروري افتراض ذكاءات تعمل على تحريك الأجرام السماوية .

« كذلك فمن غير الضروري أن يقوم الله بتحريكها ، إذا كان ذلك لا يحدث في صورة تأثير شامل ، نقول فيه : الذي يؤثر في كل شيء ، مهما كان شأنه . . » .

وبدون هذه القوة المؤثرة بشكل غير مباشر ، فالانسان ذاته لا يقوى على المشي . ولربما كان في الواقع خطأً ، إذا ما أكد المرء بأنّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يقوم بتحريك ذاته ، أو يكتب له البقاء بدون هذه القوى المطلقة المؤثرة » . ويستطرد قائلاً : « ترون أنَّ آراء الفلاسفة تختلف بشكل جوهري عن حقيقة المعتقدات الكاثوليكية » . حقيقة بوجهين !

هذه النظرية البوريدانية (نسبة إلى بوريدان) ، أصبحت أساساً لقوة محركة جديدة ، وإلى حين يتم اكتشاف التثاقل وقوانين السقوط .

في هذا الوقت ، أنجز الالماني ، البرت من ساكسن ، وهو مكتشف أصيل مفعم بالحيوية ، أعمالاً تمهيدية هامة ، من أجل شرح حركة النجوم ـ أجل ومن أجل حركة الأرض أيضاً ، وسقوط الأجسام الحرّة . لقد ضبط نظرية استاذه بوريدان في القوة . ووضع نظرية الأثقال التي أثّر بها على تطور الميكانيك وعلى ليوناردو دافنشي ، وكوبرينكس ، وجاليلي وديكارت .

والشخص الثالث في رابطة مدرسة أحكام الباريسية للفيزيائيين ، هو نيكولاس من اورسمي ، الذي وقف عند نفس الأسس ، وكان صاحب العقل الألمعي ، والفكر الثاقب الحصيف ذي الأفكار الزاخرة. وقد كان في الواقع سباقاً إلى المعارف التي نسبها التاريخ إلى العظماء الثلاثة كوبرينكس وجليلي وديكارت . وقد تشبث بعكس ما قال ارسطوطاليس ، فدرّس الدورة اليومية للأرض حول محورها ، التي تقوم عليها الدورة الظاهرية اليومية للسماء . لقد قدم التقديرات لمفهوم العمل الوظيفي الحديث وللهندسة التحليلية ، التي مهد بها لغاليلي وديكارت ، والأمر هنا يتعلق بتبدلات نوعية تُمثَّلُ بواسطة رموز رياضية كتابياً . على سبيل المثال ، الخط البياني في السرعة والزمن لحركة متسارعة متماثلة الشكل سميت باسمه (نظرية أريسمي) . وقد أسدى ذلك خدمة لأستاذ اسباني عالم مقيم في باريس هو البروفسور دوفينكوس سوتو (١٤٩٤ ـ ١٥٦٠) لفرض صيغة صحيحة لقانون السقوط . وبعد سلفه الكبير يأتي مباشرة روجر باكون ، ليكتشف كأول شخص في تجاذب المِثْلين سبباً للمغناطيسية .

وثلاثتهم أقروا بالحركات السماوية والأرضية ، واعترفوا بالقوة الذاتية ، حين نصرف النظر عن القوة الحاصلة سواء بالرمي أو بالدفع . وهي قوة لا توضع حيز العمل من الخارج ، بل غالباً ما تقوم على الوساطة غير المباشرة لكل القوة المؤثرة المستقر في الباطن . ولا يفوتنا بأن حركة الجاذبية لدى ارسطوطاليس ، لها محركان خارجيان : وحركة السقوط تخضع لديه إلى قوة خارجية أيضاً ، مسببة عن محرك غير أرضي لا يتحرك ، وبواسطة من مسرح العرائس الأرسطوطاليس هذا ، برز مشهد العالم الجديد كبناء مختلف من الجذور تماماً . لأن ثمةَ أيضاً الهدف الذي يسعى إليه النقيض . هدف الصيغة الأرضية ، للاستقرار فيما هو أرضي ، وللوصول إلى نقطة استقراره الأخيرة . لأن الغرض من الحركة في نظر ارسطوطاليس هو السكون .

بقوتهم تلك ، ،تصدى العلماء الباريسيون الثلاثة بشدة لكل ثنائية ، وسحبوا البساط من تحت قدميها . إن حقيقة المعرفة ليست ولا يمكن أن تكون حقيقة العقيدة . وبذلك نكون قد قمنا بتوفير الخطوة الهامة ، التي انطلق منها بوريدان ، من نفس المنطلقات الميتافيزيقية لارساء علم اوروبي . وبالانتصار على أرسطوطاليس ، أتمَّ بوريدان تماماً التحولَ الهيكلي نحو العصر الحديث .

وبالنسبة لأرسطوطاليس ، فقد كانت تلك آخر المسببات . الهدف الذي حتَّم كل المجريات : بمنزلة رأس القنبيط من الانسان . هو الذي يحدد طريقه إلى السوق ـ وهذا غير صحيح على الإطلاق ، لأنّ المسبب ليس رأس القنبيط ، بل القصد إلى شراء رأس القنبيط وهكذا توجب على الطريقة الأرسطوطاليسية، أن يكون الهدف أيضاً هو السبب لكل الحوادث الأرضية . إن شجرة الزيتون مثلاً تنبتُ أوراقها لغرض حماية ثمار الزيتون المستقبلية . والمطر تهطل لأجل غلال طيبة .

لقد لاحظ الكثيرون هنا ، بأن شيئاً ما ليس صحيحاً . لكنه كثيراً ما اكتفى المرء بمحاولة القيام بشرح أفضل وآخر لأرسطوطاليس . إلا أن هذا الترقيع لم يؤد إلى شيء . لكن بوريدان توصل إلى هذه المسببات النهائية ، وكان

أول من وضع نظرية : كل ما يجري في الطبيعة يتم من خلال قوى طبيعية مؤثرة ، وبحسب قاعد منظمة ، وقوانين ثابتة ، وضمن شروط معينة وعلى طريقته الخاصة . وهذا يعني : حسب القوانين الطبيعة ! إن العلاقة غير المستقلة بين السبب والتأثير تعبر عن ذاتها الآن من خلال عمل حسابي » . وبذلك يكون يوحنا بوريدان قد حقق الرأي السديد من العلم ، والسبق للعلوم التطبيقية للقرون التي تلتْ . لقد تميزت بشكل فعلي المعرفة والعقيدة بصورة نهائية .

وفي ذات الوقت الذي تحلق فيه العلماء الباريسيون من حول بوريدان خلال النصف الأول من القرن ١٤ ، باشرت مدرسة المتعلمين في اوكسفورد الملتفة حول الرياضي والفيلسوف توماس برادواردين Bradwardine (١٢٩٠ ـ ١٣٤٩) ، ورئيس اساقفة كانتربري والأستاذ Wiclifs . إن أمير الكنيسة الانجليزي هذا ، كان العقل المتنقل للكاردينال الالماني نيقولاس كوسانوس ، الذي لا زالت توجد في مكتبة في كويس بعض المخطوطات حتى يومنا هذا . إن المعرفة بالنسبة للاثنين مجتمعين حول الجهل بمعرفة الله ، هي بمثابة معرفة فعلية له أو ـ الجهل العارف ـ ولديهما معاً تتوفر القناعة التي تنطق بها مقولة برادوان : « إن الله بطبيعته ووجوده ضروري في كل مكان ، لا في العالم وأطرافه فحسب ، بل وفي الفضاء ، كما يُظن ، اللانهائي . وتوجب إذاً ، أن لا يخضع لقياس أو لوصف ، وفي بعض المدلولات ، لانهائي في الكبر والانتشار ، موجود ككل في ذات الوقت . وفي انجلترا بالذات صادفت هذه القناعة خلفها الشهير في شخص هنري مور واسحاق نيوتن .

خطآن تاريخيان

إن مذهب الحقيقة الثنائية ـ أُدى مرَّة كخائف في حمى الدين ضد افتئات العقل ، وتارة كعلم طليق مفيد ، غير مستهدَفٍ للمزعجات ، مبرّرٍ في ذاته ، ومن ثمَّ كحجة لاذعة للجدل السفسطائي ـ أدى كلما اتسع دوره إلى تحرير وتقوية الوعي العلمي . بحيث أن التهديد الناجم عن محاكم التفتيش قد تفاقم ، الأمر الذي عمل بدأب على إضاءة مأساة الحالة العلمية التي لا مهرب

منها بحزم ضوئية باهرة من أكداس الحطب في بيئة مسيحية .

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه هنا : هل الصدامُ بين الايمان والمعرفة شيءٌ لا مناص منه ؟ إن التاريخ الأوروبي هو الذي يحملنا على مثل هذا الاعتقاد . وهو الشيء الذي ينطبق على القناعات السائدة حتى يومنا هذا .

والسؤال الثاني : هل ينسحب هذا التضارب على سائر الأديان وفي كل الأزمان؟ إننا نعارض هذه النظرية . أجل ، لنؤكد أنها لا تسري أيضاً ، حتى بالنسبة لأوروبا في القرون الوسطى . إنها تخفي وراءها نقيضاً آخر .

إن التعارض المزعوم الذي لا بد منه بين العقيدة والمعرفة ، هو في الواقع تناقض بين بناءين مختلفين في الفهم ، تناقض بين اسلوبين في التفكير من نمطين مختلفين .

ومن البديهي أن السلطتين المعترف بهما ، الديانة المسيحية من جانب ، والفلسفة الأرسطية على الجانب الآخر ـ اللتين قامتا على ضربين مختلفين من الثنائية ـ الشرقية واليونانية ، لم يكن من سبيل إلى التوفيق الكلي بينهما بدون ربط .

أجل ، لقد كان العزم على الجمع بين التصميمين الثنائيين هذين مع علم غير ثنائي قائم بذاته بدون جدوى ولا أمل . في حين أن التناقض ما بين دين وعلم من نفس النمط ـ كلاهما أحادي ـ توافرت فيهما منذ البداية تطابقات بديهية ـ ما كان لهذا التناقض أن يجد طريقه إليهما . ذلك أنه ، هذا العلم الأوروبي لم ينشأ فقط من وحدة فكرية أوروبية . لقد أقام العلم استفساراته ، المبادىء والنتائج على أساس فكري موحد .

أجل ، إن هذا العلم قد نما من تدين أوروبي توحيدي . وفي معرض نظرية عدم قابلية الدمج ما بين العقيدة والمعرفة ، فقد تآكل في الوعي الأوروبي ميلٌ آخر لا يتسنى إيقافه وإن كان ذا وزن أرجح وبشكل جوهري : فكما عاشت المعرفة والعقيدة في أوروبا في تنافس جنباً إلى جنب ولا زالت ـ فلا بد إذاً ـ هكذا

إستُنتج وبدون تمحيص ـ أن يكون العلم ، والمعرفة « ملحداً » ، « مادياً » ، « عدواً للدين » .

إن الإنزال الخاطىء المعتاد المطلق للدين أو المعتقد نفس منزلة الديانة المسيحية ـ على قدم المساواة ـ هو الذي أدى إلى ارتباكها في هذا الصدد . لقد استبدل الناس تحرير العلم من اشراف أولياء الأمر اللاهوتيين للديانة المسيحية خطأً ، بالتحلل المطلق من الارتباط الديني . غير أن المرء تغاضى عن هذه النقطة الجوهرية : وهي أن الفضول العلمي ، والاستفسار عن مسببات الأشياء وقوانينها ، كانا منذ البداية وعلى الدوام تساؤلين دينيين . أجل تساؤلاً دينياً بحت وإن لم يصدر عن تدين مسيحي ، بل عن غير مسيحي ، تدينٍ آخر وحيد التوجه .

لم يكن لدي المسيحية ، كهدي سماوي ، أسئلة توجهها إلى العالم . ولقد سمحت للإنسان كذلك بتوجيه أسئلة لها . أو لم تكن الشهوة إلى المعرفة هي السبب في انزال الخطيئة إلى العالم ؟

أو لم يصف الله حكمة العالم بأنها غباء ؟ « ورفض بولس كل أنواع البحث عن الحقيقة » .

وإلى جانب الطريق الروحية ، الوحيدة الموصلة للروح ، إلى الله ، اعتبر كل طريق للبحث عنها في أي مكان آخر عدا الوحي خاطئاً مارقاً . ولقد جرب ذلك كل من فلهلم ـ كوش وجلبرت دي لابور de la Porée ، وكثيرون غيرهم على أبدانهم . أن تكون محباً للإطِّلاع ، وأن تبحث بعد ما بُشِّر بالانجيل ، امران جعلهما يترتوليان وأوغسطين ورئيس الأساقفة تمبير Tempier ـ الذي كان ظمأه إلى المعرفة واضحاً ـ اثماً عظيماً وخطيراً . هذا فضلاً عن أن توماس ـ اكوين ، قد تحدث إلى الراغبين في معرفة الأشياء التافهة في القرن ١٣ عن الضمير السيىء .

« إنها طبيعة الأشياء . هي التي تنورنا بالنمط والطريقة التي بني بها الكون » .

كان ذلك رأي هونوريوس تلميذ اريوجينا في القرن ١٢ ، ردّاً على الذين يزدرون الأشياء التافهة ، التي هي في رأيه انبساط المادة التي يمسك بها الله . وهو الاحتجاج المزامن الذي رفعه فلهلم ـ كوش تلميذ إريوجينا النورماني ضد تحذير الروحيين إليه بضرورة التقيد باستقاء المعلومات التي تُحدد بها مهمة وأوجه استعمال الطبيعة من الكتاب المقدس ـ وهي مهمة مفهومة دينياً تماماً : « البحث في أصل الأشياء وقوانين نشوئها ، تلك هي المهمة الكبرى للمؤمنين » . وحين شهَّر الراهب أبسالوم Absalom من دير سانت فكتور مرتعشاً ، بالفضول الكافر المتزايد نحو معرفة شكل الأرض ، وطبيعة عناصرها ، موقع النجوم وطبيعة الحيوانات ، وقوة الرياح ، وحياة النباتات والديدان ، تأفف فلهلم من الحق الذي أعطته لنفسها تلك الرهبانية الغريبة عن الطبيعة : « أنتم الذين لا تعرفون قوى الطبيعة ، تريدون أن نظل مشدودين إلى جهلنا ، حين ينازعوننا حقنا في البحث عن الأسباب ، ويصبون علينا اللعنات بخشونة . . الأفظاظ يتمسكون بعقيدة دون فهم . . وحين يبحث أحدهم ، يصيحون : إنَّه كافر . . » .

لِمَا لم تستطع العلوم الطبيعية النشوء وسط فكرة العالم المزدوج ؟

إن الديانة المسيحية السماوية ، لم تكن خالية الوفاض فقط من أسئلة توجهها إلى العالم ، لأنَّ مشيئة الله ليست موضع سؤال ، بل لأنّها فضلاً عن ذلك غير قابلة للحساب . وفي رأيها ، لم يكن ثمةَ باعث فقط ، بل وحقٌ أيضاً في تقصي الأسباب .

واستناداً إلى خلفية الفكرة المسيحية عن العالم (صورته) ، كما رسمها اللاهوتيون طبقاً للانجيل ومؤازرة من خادمهم ـ سواء بأوغسطين ، أو افلاطون ، أو الافلاطونية الجديدة ، أو الفلسفة الأرسطوطاليسية ، فإنه لم يكن بالامكان أبداً نشوء علم طبيعي . لماذا ؟ إن الثنائية المسيحية عملت على رفد

الطبيعة بنظام خارجي ، عن طريق إلّه أخروي ، دخل في هيئة غيبية ، سواء أكان بمعجزة ، بالرحمة أو العقاب ، بتقمص صورة انسان ، في عالم أبدي تسيطر عليه العفاريت ؛ وبعد أن انسحب ، ما انفك يتدخل يومياً من خلال سر الأقداس ، ومن خلال تقبل الصلوات والجزاء والأعمال الخيّرة .

هل كان في الامكان تقديم علم طبيعي ، طالما الاعتقاد سائدٌ ، بأن الحادثة الطبيعية تُقرر بواسطة مشيئة تكتشف لإلّه مقتدر ، برحمته أو نقمته ، بعدما حرم على الانسان السؤال ؟ كل شيء يلفه الضباب . إثمٌ ! بغير نفع . طالما أن كل ردٍّ كان سيكون على النحو التالي : « مشيئة الله » .

هل أمكن للعلم أن يتقدم على أساس الثنائية الافلاطونية والافلاطونية الجديدة ، طالما أن العالم المنظور للطبيعة السماوية والأرضية لا شيء ، مجرد ظل واهن لعالم الفكرة ، وأن كل مجهود يبذل لاكتشافها ، عبثٌ ، لا يستسيغه العقل ، كما قال أفلاطون : « يجب بدلاً من ذلك أن ننكب على المهام المجردة ، سواءٌ في الفلك أو الرياضيات والأجرام السماوية ، إذا ما طمحنا بصدق إلى فهم الفلك » .

هل كان في الامكان أن يتقدم علم طبيعي أصيل على تربة الازدواجية ـ الأرسطو طاليسية ـ التوميسي (نسبة إلى توماس ـ اكوين) ، على النحو الذي كان مسيطراً فيه على كل الفكر الفلسفي ، الذي من أجله ، وجب على الروح الإلّهية أن تطبع الصيغ لمادة مثاقلة ، سلبية ، جموح ، وأن يتسبب صانع غيبي على الدوام وتدريجياً من أعلى إلى أسفل في سببية مخففة لكل مرحلة وكل تغيير طارىء ـ وهو ما يسمونه هنا حركة ـ مهزلة الحركة ، التي شهَّر فلهلم فون اوكان من اضحوكتها ـ والسهم المطلق ، كما يرى ارسطوطاليس بمنتهى الجدية ـ الذي تجذبه ؛ فجأة زوبعة ناشئة في الهواء نحو الأمام ، أو أن تُعرَّف الغايات من الحدث الطبيعي مثلما كان بالنسبة لشجرة الزيتون ، تنبت الورق كي تحمي الثمر ؟

هل أمكن أن يشهد العلم الطبيعي تطوراً ، حيث تتبدل الحتميةُ كتبدل

الأمزجة بدلاً من النفاذ العام ، أي أن تكون القوانين سارية اليوم ، لاغية في الغد ، أو أن تسري هنا حيث أقف وتتعطل في مكان آخر ، وفي منطقة الأجرام السماوية شيء آخر ، أبدية خلافاً لما هي عليه في واقع الحال في النطاق الأرضي . لو أنه لدى التوجه ماذا لم يكن في اللعبة ملائكة أبداً ، ولا مهارات إلهية تعمل على تأمين الحركة دوماً ـ أجل ، لو قدَّر الله وأوضح المؤتمر الباريسي صحة هذا السؤال ـ كما أنه جعل الشمس ساكنة لدي Gibeon ، فإن قدرة مشيئته المطلقة قادرة أن تجعل كل الأجرام في يوم ما ساكتة ؟

ربما كان من الخطأ الوقوف على غرائب تصور القرون الوسطى عن العالم بهذا السرد . فلقد قام أيضاً على فكر ساذج متخلف ، نعتبره بمثابة مرحلة طبيعية وضرورية من أجل فكرنا المتقدم من خلال النجاحات العلمية ، ونسخر منه كشيء يدعو للأسف . من الذي يريد أن يمنح وثيقة للسذاجة اليونانية الأكبر من حجمها ؟ إن الأمر لا يتعلق هنا بالقيمة أبداً ، بل الأمر يتعلق باختلافات جوهرية .

ولنفس السبب السابق ، فمن الخطأ كذلك أن نتوقع بأنه كان من الممكن أن ينشأ تطور عن تلك النظريات وبالكبت الديني والإلهي خطوة فخطوة وتدريجياً علم طبيعي أوروبي ؟ كذلك يخدع نفسه من يعتقد أحياناً بأن استبدال وجهة النظر والأشياء ، وصَرْفها عن الله نحو الطبيعة ، هي التي أدت إلى تطوير العلوم الطبيعية .

إنّ الفكر الثنائي لم ولن يستطيع أبداً أن يأتي بالعلم بالمفهوم الأوروبي . إنه لم يعمل على إعاقة وعرقلة نشوئه فقط ، بل ربما عمل على منع أبحاثه مطلقاً . أو لم يسرْ به المنحرفون الكفرة بالاحتجاج والخطر المهدد للجسم والحياة نحو النور؟ وقد استدعى الأمر أن تبقى الأمور على وضعها الراهن ردحاً طويلاً من الزمن .

الشروط الفكرية المسبقة للعلم الأوروبي

سبق وأن قلنا بأنّ العلم ، إنما أصبح ممكناً بفضل أسلوب فكري مخالف للثنائية تماماً . أجل ، بسبب إلٰه ومعتَقدٍ مخالفين تماماً . بأي شيء تهيّأ ، ومن ثمَّ : هل أهّلت هيكليَةُ الوعي الأوروبي هذه بالذات ، الفرنسيين والالمان ، الانجليز والايطاليين ، الهولنديين والأسباب والاسكندنافيين للحصول على العلم الطبيعي الأوروبي ؟

إن التحول القاطع في التفكير يبدو جلياً في مفهوم المادة والتحول الجذري في معناها . كانت المادة ، بالصدفة ، واهنةً ، ثقيلة ، سلبية ، جموحاً لدى أصحاب نظرية الازدواج في ذلك العصر . والمادةُ منذ ظهور دافيد ـ دينانت ، والمعلم اكهارث ، وانتهاء نبيكولاس كوسانوس ـ كطبيعة مخلوقة ، هي انبساط الطبيعة الخالقة ، أي الله ، الذي تحتويه الطبيعة في داخلها ، أو كما عبر عنها الاسكتلندي : « من ذاته يكتسب الله الفرصة لتجلياته وظواهره . لأن الأشياء كلّها ، منه ، به ، فيه ، وإليه . والمادة التي صنع منها العالم كذلك منه ، وفيه ، وهو فيها ، طالما أنه يمكن التعرف إلى وجودها .

وبجزم قاطع ، كما لم نعهده لدى أي فيلسوف من فلاسفة العصور الوسطى المبكرة ، ناصل آريتوم ـ باريس ودافيد ـ دينانت ضد فكرة الانقسام الغيبي المزدوج ما بين المطلق الذي تشكل الروح والمادة وحدته الأساسية ، والمادة الجامدة التي تعتبر ـ كما يزعم ، منفصلةً عنه انفصالاً كلياً ، هي المحتوَى لكل قواه الصائرة .

فيها وليس خارجها يجد المرء أسباب نشوئها وصيرورتها . وإليها ذاتها ، وهي الوجود الوحيد للحقيقة ، يتوجه المرء بأسئلته في استسلام للمشاهدة والتجربة والتقصي والتجريب والقياس ، لأن كتاب الطبيعة مكتوب ، كما يقول روجر باكون ، بحروف حسابية .

وبالنسبة لهم جميعاً ـ فلاسفة الطبيعة ـ برنهارد وتيري ـ شارتر ، فلهلم ـ كوش ، جلبرت دي لابور ، وهونوريوس ـ ريجنسبرج ، فريدريك الثاني ،

البرت الكبير ، وجوردانوس نيموراريوس ، جروسي تيسته ، روجر باكون ، وسيجر باربانت ، يوحنا بوريدان ، البرت ـ تساكش ، نيقولاس أوريسمي ، وتوماس براد واردين ، وكما ورد في العرض الجامع الضخم لنيكولاس ـ كوسانوس ، فإن الطبيعة هي مصدر الايحاء للألوهية في كليتها ، جزئياتها وضخامتها . في الأرض كما في الكواكب ، الطبيعةُ ذاتها في كل شيء ، مشتقة من نفس العناصر ، وتتحرك في كل مكان من قبل القوى المشابهة المؤثرة في داخلها بصورة غير مباشرة ، والخاضعة للقوانين الحسابية المماثلة المعترف بها .

وباختصار : إن العلم الطبيعي الأوروبي كان ممكناً فقط على أرضية ايجاد تفسير ديني آخر للطبيعة ، وعلى المفهوم الإلهي لمغزى المادة ، التي ، لا كما يقول توماس ـ اكوين عنها ، بأنها مصابة بكل ما يخطر على البال من شوائب ، بل هي سامقة للانبساط الإلهي المنظور ، المحسوس ، الذي تتحقق وحدته وتنسجم في شتى الصور ـ وتتجسم « وتتجمع لتتحد انطلاقاً منها . . » لتتوحد . .

وسواء أكان السؤال أو عرضه ، فقد تحددا من خلال نمط التفكير ، من خلال هيكلية الوعي الأوروبي ، الذي لم يصبح قادراً على التوصل إليها إلا بعد أضراب شتى من التحكم العقلاني الأجنبي . وبعد أن تحرر من نمط التفكير الغريب عنه بدفاع طويل النفس ، بحيث أمكنه الشروع في علم طبيعي أوروبي الأسلوب .

إن سائر العلوم الأوروبية تشترط وقبل التوجه بأي سؤال إلى الطبيعة ، وقبل التجربة والبحث ، ستَّ أسس تنبع من مبدأ واحد :

١ ـ الايمان ، وبعبادة أدق ، اليقين بوحدة حقيقة الوجود والموجودات ، الله والطبيعة ، وكذلك العقل والمادة ، الروح والجسد ، التي ـ لم تتناثر بواسطة الحدود أو التناقض بين مادة غير حقيقية ، وحقيقة الفكرة الساطعة أو الصيغة الموحدة للطبيعة ، إلى ثلاثة عوالم منفصلة تماماً ـ سماء ـ أرض ـ وجهنم ـ أخروية ودنيوية .

٢ ـ وعلى أساس هذه الوحدة والشمول لكل أجزاء العالم ، وتشابه المادة في الكون كلِّه ؛

٣ ـ وعلى أساس تلك الوحدة ، (التطابق) أو تجامل الأضداد في كل المجريات وعلاقة التبادل ، والتأثير المتبادل للقوى الفاعلة ؛

٤ ـ حتمية سريان نظام داخلي ، لا يتلقى ايعازاً من الخارج ، ولا يمكن أن يخرق بتدخل فردي من إلّه غيبي ، ولا في مناطق مختلفة كمدارات النجوم التي تختلف عما هي عليه فوق الأرض ، أو المختلفة عنها في العنصر كالنباتات والحيوان والانسان .

٥ ـ وبسبب تغلغل الوحدة والحتمية والقناعة في ادراك رياضي كمي لحقيقة الطبيعة ، بدلاً من الوصف النوعي للمواد وتعاطفها وميولها ، كالعناصر : الأرض ، الماء ، الهواء ، والنار .

٦ ـ حتمية التحرك الداخلي ، وزخم احداث الطبيعة ، التي لا ترى الكمال في اللاحركة والاستقرار ، واستحسان الصيرورة التحول المستمر ، والتطور ، والقوى المؤثرة في كل شيء بصورة غير مباشرة في كل شيء ، التي لم تُستدع بواسطة الشوق إلى هدف أبدي خارج الطبيعة ، أو هي في حاجة إلى محرك دفعة فدفعة ، ومرّة وإلى الأبد ، ليست الخليقةَ الجاهزة ، الجامدةَ ، النهائية ، المحدودة زماناً ومكاناً من لَدُن خالق ، دفعها مرّةً ، ومن ثمَّ تركها وشأنها ، والتي يدعها تختفي بناء على مشيئته .

لقد اختط نيكولاس ـ كويس (١٤٠١ ـ ١٤٦٤) في السيرة العقلية لأحد الاسكتلنديين ، اريوجينا ، والمعلم اكهارت ، تيري من شارتر ، وتوماس برادوين ، بمفرده ، وبدافع من فكره ذي الوتيرة الواحدة ، صورةَ الوجود المحركة الوحيدة . لقد قدّم لصورة العالم الأوروبية بفكرته عن وحدة الأضداد عمقاً إضافياً . لقد قدّم لنفسه شخصياً ولتلامذته تلقائياً من خصب دافق كما قدّم للمعرفة العلمية حول الطبيعة . عنه صدرت نبضات قوية جديدة . ومن خلال الاصدار الباريسي لمؤلفاته التي أولاها Faber Staplilersis اهتمامه ،

أشعَّتْ نحو فرنسا ذاتها إلى Bouillé ، مارغريت ـ نافارا وريدروت ، ونحو المانيا إلى كبلر ، وإلى ياكوب بوهمه وكثيرين غيرهم ، ونحو انجلترا إلى هنري مور ، ونيوتن ، ونحو ايطاليا إلى ليوناردو دافنشي ، فيسينوبيكو ، وبصفة خاصة إلى جوردانو برونو ، ومنه انتقلت إلى ديكارت ، لايبنيس ثم كانْتْ ، جوته وشلبخ . وبذلك امتد فكره بعيداً فوق المعرفة غير المباشرة لأعمال كوسانو ومنها إلى الوعي الأوروبي .

ليوناردو دافنشي

وفي ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) ، نجد شخصية غير اعتيادية . تميزت بقوة خلاقة فريدة معطاءة ، بصفته رساماً وخطاطاً ـ مفكراً وباحثاً متنوعاً ، ومبتكراً عبقرياً شجاعاً . أخفى إنجازه عن مجتمعٍ جاهل تقريباً بحوار مثير مع نفسه ووحدته .

ولفت الصبي الأنظار بوسامته وبطبيعته الهادئة . ولقد دفعه فضول لا يرتوي ردحاً من حياته ـ فيما هو منظور ـ بما قدمته له حواسه بشكل فياض ، سواء أكان في العضوي أو غير العضوي ، وفي حقل التشريح والجيولوجيا ، الفيزياء أو الفلك لمباشرة ما لا يقع تحت دائرة النظر في ذات الوقت . وقد فتش في مختلف المجالات دائماً عن أصول العلاقات وعن قانونيتها (حتميتها) ، التي تسكن في الظواهر الطبيعية . فمن أي معين يا ترى ، نهل هذا المفكر ثاقب النظر المتعدد المواهب ليشكل حدثاً عالمياً ؟

لقد نظر بتقدير أسمى ، لأن يكون فيلسوفاً على أن يكون مسيحياً . وصدم بذلك معاصريه . أنه الفيلسوف الذي قفز بفلسفته إلى ما فوق الكائنات الطبيعية التي تقع قوتها الفاعلة والخلاقة والمنعشة في ملكوت الله . وثمة مخطوط يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٩٠ ، كُتب بخط يده ، فيه يظهر بجلاء الأثر القوي الذي تركه فيه الأسقف الالماني كوسانوس من خلال مؤلفه .

والطبيعة لديه ـ أيضاً ـ انبساط للربوبية التي تتسع لكل شيء ـ وهي في